مجتمع

ثلوج كثيفة غير معتادة في جنوب أفريقيا

توفيت امرأة بعدما علقت في حافلة على طريق مقطوع جراء تساقط الثلوج الكثيفة غير المعتادة على المناطق الشرقية في جنوب أفريقيا، بحسب ما أعلنت السلطات أمس الأحد. وقالت الهيئة المعنية بحالة الطرقات، إنّ السير قُطع على مسافة 30 كيلومتراً، خصوصاً في المحاور الرئيسية للبلاد التي تربط جوهانسبرغ بدوربان الواقعة على الساحل الشرقي. وتوفيت المرأة (39 عاماً) في المستشفى نتيجة انخفاض حرارة الجسم، بعدما أمضت ليل الجمعة - السبت عالقة على الطريق مع غيرها من ركاب حافلة صغيرة. (فرانس برس)

إطلاق نار يوقع ضحايا في ألاباما

قتل أربعة أشخاص وأصيب العشرات في إطلاق نار، ليل السبت، بمدينة برمنغهام بولاية ألاباما الأميركية. وقالت الشرطة المحلية إن إطلاق النار وقع في منطقة فايف بوينتس ساوث في وقت متأخر من الليل، وإن أربعة من المصابين على الأقل يعانون إصابات تهدد حياتهم. وقالت شرطة برمنغهام إنها تبذل كل ما في وسعها لتحديد هوية وملاحقة المسؤول عن الحادثة، بينما لا تزال دوافع إطلاق النار غير معروفة. وتشهد الولايات المتحدة حوادث إطلاق نار متكررة بدوافع مختلفة، ويعتبر انتشار السلاح من بين أكثر القضايا جدلاً. (قنا)

شرطيان في موقع حادث الطعن بزولينغن (هشام الشريف/ الأناضول)

اللاجئون السوريون في ألمانيا... إشكالات الإبعاد غير الآمن

تعهّد المستشار الالماني أولاف شولتز بعدما قتل لاجئ 3 أشخاص طعناً في زولينغن، بطرد من لا يجوز أن يبقوا في البلاد، لكن التنفيذ يواجه إشكالات الإبعاد غير الآمن

برلين - **شادي عاكوم**

تُظهر الحكومة الألمانية ردّ فعل صارما على حادث الطعن في مدينة زولينغن، نهاية أغسطس الماضي، الذي خلّف 3 قتلى و8 جرحى، ويشتبه في أن لاجئاً سورياً ارتكبه، بعدما قررت التعامل بمرونة أكبر مع موضوع ترحيل لاجئين سوريين من مرتكبي الجرائم والمخالفات القانونية إلى بلدهم. وهي تستجيب بالتالي لضغوط تمارسها أحزاب وسلطات ولايات منذ مدة للمطالبة بترحيلهم رغم الحظر المفروض على عمليات الإبعاد إلى سورية، والمطبّق منذ عام 2012. وتؤكد وزيرة الداخلية نانسي فيزر أنه سيجري الإعلان عن تنفيذ عمليات ترحيل وشيكة إلى سورية وأفغانستان، تشمل مجرمين ارتكبوا جنايات خطيرة. وتوضح أن الأجهزة الأمنية قطعت شوطاً كبيراً في إجراءات الإبعاد، وأن النتائج ستظهر في وقت قريب. وأخيراً رحّلت برلين، بشكل مفاجئ، لاجئين أفغانا إلى كابول، رغم أنها قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع حكومة حركة «طالبان» منذ أغسطس 2021، تاريخ استعادة الحركة السلطة في أفغانستان.

وحث فريدريش ميرز، زعيم الحزب المسيحي الديمقراطي، أكبر أحزاب المعارضة في البرلمان (بوندستاغ)، الائتلاف الحاكم على اعتماد النموذج الدنماركي الذي صنّف مناطق في سورية بأنها آمنة تمهيداً لإعادة لاجئين إليها. كما ظهرت تعليقات بأنه يمكن التمثل بتركيا التي رحّلت رغم انقطاع العلاقات مع نظام بشار الأسد، لاجئين يقيمون على أراضيها، وذلك بالتنسيق مع أطراف سياسية ناشطة في البلد. أيضاً قال وزير داخلية ولاية هيسن، رومان بوسيك، إنه «يجب أن تكون عملية إعادة السوريين الذين أجبروا على مغادرة بلادهم ممكنة، بغض النظر عن الجرائم الجنائية».

عقبات قانونية

وتشير تقارير إلى أن «ترحيل اللاجئين السوريين من ألمانيا سيواجه العديد من العقبات الداخلية والدولية، خصوصاً على الصعيد القانوني، فالفقرة 60 من قانون الإقامة تمنع ترحيل أي شخص إلى بلد تتعرض فيها حياته لخطر وتقيّد حريته».

ومعلوم أن السلطات الألمانية تستند عادة إلى النصوص الواردة في اتفاق جنيف للاجئين الذي يشترط عدم الإعادة القسرية، لذا يجب ضمان ترحيلهم إلى بلدانهم الأصلية الآمنة، وبالتالي لا يجوز الإبعاد إذا كان البلد غير آمن، علماً أن وزارة الخارجية الألمانية تتولى مسؤولية تقييم الوضع الأمني للدول التي يجري ترحيل لاجئين إليها.

وفي رد مبدئي على إجراءات ألمانيا، نقل موقع صحيفة «دي تسايت» عن ممثلين رفيعي المستوى في الإدارة الذاتية الكردية قولهم إن «مخطط وزيرة الداخلية الألمانية فيزر لترحيل اللاجئين الخطرين سيُساهم في إعادة ظهور تنظيم داعش. وإذا حاولت الحكومات تسليم عناصر متطرفة إلى النظام الذي كان أطلق مع بداية الثورة السورية سراح آلاف الإسلاميين من سجونه، ما جعلهم يحولون الثورة الشعبية إلى ثورة إسلامية، سيوجد ذلك مخاطر أمنية كبيرة».

يشار إلى أن الحظر الصارم الذي يفرضه الاتحاد الأوروبي على إعادة الترحيل إلى سورية شكل أخيراً محور تجاذبات في بروكسل، إذ دعت النمسا وقبرص والدنمارك واليونان وإيطاليا ومالطا وبولندا وجمهورية التشكيك إلى إعادة تقييم الوضع الأمني في سورية، وتصنيف بعض المناطق والمحافظات بأنها آمنة قبل تنفيذ عمليات إبعاد للاجئين سوريين إلى وطنهم.

بلد ممزق ومناطق غير آمنة

أيضاً طُرحت تساؤلات في شأن سياسات التعاطي مع سورية الممزّقة، وسيطرة مكونات مختلفة على أجزاء منها، فالنظام يتحكم في الجزء الأكبر من المناطق، ويتواجد الأكراد في شمال شرقي البلاد، والحركات الإسلامية في إدلب ومحيطها، حتى أن تنظيم «داعش» لا يزال حاضراً في مناطق صغيرة. وبالتالي تعتبر سورية في وضع غير مستقر سياسياً وأمنياً، وتتضارب مصالح اللاعبين السياسيين فيها. ويُرجح بحكم الأمر الواقع تنفيذ عمليات الترحيل مباشرة إلى مناطق نظام الأسد، الذي تفيد تقارير منظمات إنسانية دولية بأنه «لا يزال يبطش بمواطنيه، ويُجري اعتقالات تعسفية يغطيها القضاء الذي يعمل في خدمته». وهنا يخشى كثيرون من إعادة الحرارة إلى العلاقات الدبلوماسية مع نظام هجّر شعبه وشرّده وسفك دماءه، ما يُطيح بكافة المواثيق الدولية والإنسانية ويمهد للاعتراف بشرعية هذا النظام، والذي يتعارض مع سياسة برلين تجاه سورية الأسد.

وفي ظل تقييم مؤسسات بحوث ألمانية ومنظمات لحقوق الإنسان سجون سورية بأنها أشبه «بمعسكرات اعتقال غير إنسانية»، يتساءل اللاجئ السوري أبو أياد، في حديثه لـ«العربي الجديد»، عن المناطق التي تريد ألمانيا أن تصنّفها بأنها آمنة. ويعتبر أن «هذا الطرح ليس سوى كلام إنشائي بالنسبة إلى اللاجئين السوريين الذين لا يعني التصنيف شيئاً لهم، لأن غالبيتهم مطلوبون لدى أجهزة الاستخبارات في سورية. وهم يواجهون بالتالي خطر الاعتقال في أي لحظة حين يتواجدون في أراضي سورية، وستكون أرواحهم أمام مقصلة نظام استبدادي هجّر نحو نصف شعبه، وعرّض حياتهم لخطر ولانتهاكات حقوق الإنسان التي تؤكدها وثائق كثيرة عن حالات التعذيب والإخفاء القسري». ويشير أبو أياد إلى أن «لاجئين كثيرين قرروا زيارة بلدهم بعدما حصلوا على الجنسية الألمانية، وعندما وصلوا إلى معبر الحدود مع لبنان وبعد ختم جواز السفر، طُلب منهم مراجعة الفرع الأمني المعروف بالخطيب، ما اضطرهم بعد وساطات إلى دفع رشوة للحصول على ختم خروج فوراً، والعودة إلى بيروت تمهيداً للمغادرة إلى ألمانيا. وكل ذلك بسبب الخشية من المثول أمام عناصر نظام الأسدي، في ظل التوجس من وجود ملفات مركبة في حقهم، وبالتالي من دفعهم إلى أقبية السجون، حيث لا يمكن أن يعرف أحد مصيرهم في ظل نظام قمعي مفلس». ويدعو أبو أياد إلى «محاكمة السوريين من مرتكبي الجرائم وفقاً للقوانين الألمانية، وتقديم كل من يهدد أمن ألمانيا إلى سلطات إنفاذ القانون، لاسيما أن الجميع يجد مكاناً آمناً في ألمانيا. ولتأخذ العدالة مجراها، وينال كل مرتكب عقوبته، أما الترحيل إلى سورية، البلد غير الآمن، فإجراء يتعارض أساساً مع قوانين اللجوء».

لا مزيد من الحماية للسوريين

وأخيراً، اعتبرت المحكمة العليا في مدينة مونستر، خلال نظرها في قضية أحد اللاجئين، أن حماية اللاجئين السوريين لم تعد ضرورة، باعتبار أن التهديدات الخطيرة ضد المدنيين في سورية قلّت للغاية. وأوردت المحكمة أن «المدنيين السوريين لم يعودوا يواجهون تهديدات فردية لحياتهم أو سلامتهم البدنية، نتيجة للعنف العشوائي في سياق نزاع داخلي مسلح».

وأعقب ذلك وصف وزارة داخلية ولاية بافاريا الحكم بأنه «مهم ورائد ويمكن البناء عليه في تنفيذ إجراءات. كما يجب أن يؤثر على قرارات المكتب الاتحادي للهجرة واللاجئين، تمهيداً لعدم منح اللاجئين تلقائياً حق الحماية الفرعية. ورغم أهمية استمرار المساعدات الإنسانية، يجب جعل ترحيل المجرمين الخطرين أمراً ممكناً مجدداً».

أما مجلس اللاجئين البافاري فقيّم الحكم بشكل مختلف تماماً، وقال إن «إلغاء الحماية الفرعية الممنوحة لجميع اللاجئين السوريين إجراء غير واقعي ومميت».

تظاهرة لليمين المتطرف بعد حادث الطعن في زولينغن (بنغ تانغ/ Getty)

عن الإبادة والنقصان

شهادات ناجيات وناجين من حرب غزة

هَذِه شهاداتٌ لناجين وناجياتٍ من الحرْب في قِطاع غَزَّة التقيْتُهم في البِرْزخ. حكاياتٌ مَسمُولةٌ بالشّواك تُحاول التّحديق في الفاجعة، سِلْسلةُ قصص توثيقيّة تبحث في ثِيمة النُّقصان. هُنَا بشرٌ فَقدُوا كُلّ شَيْء: عائلاتهم، بُيوتهم، أطْرافهم، أحْشاءهم، قطعا من اللّحْم إعْتادتْ ان تَكسُو عِظامَهم، حَواسّ زوَّدتْهم بِها البيولوجيَا لِالْتقاط معْلوماتٍ عن العالم الخارجيّ، وَرقّة تِينٍ توارِي سَوآة خَطيئَة لَم يقْترفوهَا، وَلغَة مُتماسكة لَم يُصبهَا مَا أصَاب اصْحابهَا من تشظٍ وشَتات واشتحالة إلى أشْلاء مُتناثرة. قصص النُّقصانُ هَذِه: نُقْصان الاجْساد من اعْضائهَا، الخريطة من تضاريسها، الرِّئة من بقْلهَا وقنّانهَا وزيْتونهَا، البحْر من اسْماكه، القصائد من وزْنهَا وقافيتهَا، المنْظومة التّعْليميّة من اساتذتهَا وتلامذتهَا، المشافي من حَبَّة دَوَاء، قصص تُحاول الاكْتمال عَبْر روي النُّقْصان، صَوْت الضحية - التي لَم تَعُد تَملِكُ غَيْر ذاكرتهَا فعْلا لِلْمقاومة - لِجَعل اللغَة البَشريَّة الحسِّيَّة قَادِرة على تَجسيد الالم او النَّظر إليه. إنها مُحَاوَلَة لِرؤْية الإبَادة من وُجهَة نظر خَاصَّة بِلحْظة مُعَينَة تَبحث فِيمَا حدث لِفلسْطينيِّي غزَّة بَعْد السَّابع من أكْتوبَر.

هذه الشهاداتُ التي تكتُبُها الروائيّةُ سمر يزبك وتنشرُها «العربي الجديد» على حلقاتٍ ستصدُرُ لاحقاً في كتابٍ يحملُ اسمَ «ذاكرة النُّقصان»

شهادة | ندى عيسى عيّاش

الرائحة

سمر يزبك

ليس من الصحيح دائماً أنّ الماسي البشريّة تنتجُ التحيب والعويل تلقائياً على وجوه الضحايا، هذا غيرُ صحيح البتّة؛ خُطِرتْ هذه الفكرةُ ببالي لحظة سمعتها تحكي قصّتها. كانتْ ثابتةً في مكانها، وعلى الرغم من كلّ ما جرى معها، ورغم الألمِ اللامعقول الذي حملتْهُ الكلمات، لكنّ عباراتها استمرتْ ثابتة، أفكارُها غير مهتزة. لم تكنْ من ذلك النوع من النساء اللواتي يحتجْنَ إلى تحريك أيادِيهنّ باستمرار، بالمقابل بدتْ وكأنّها تشبهُ تلك النساء اللواتي وصفْتهنّ الملاحم الشعبية القديمة، اللواتي رغم كلّ العواصف والأعاصير، كنّ واثقاتٍ أنّ الزرْع سينمو من جديد.

أنا ندى عيسى عيّاش. عُمْري أربعون سنةً وبِضْع حُروب، فأن تكون فلسطينيّاً يعني بالضّرورة أنّ الحرْب جُزْءٌ أساسيٌّ من زَمنِك وبطاقة هويّتك. وُلدت في المنفى، ونلتُ البكالوريوس في التحاليل الطبّية، لكن من ذا الذي يستطيع مُقاومة اسْم فلسطين؟ قد وعيْتُ وأنا أردّد: سَأعُود إلى فلسطين، هي بلادي! مُذ وعيْتُ وهذا حلْمي الوحيد. وعدتُ إلى غزّة، وتزوّجتُ، وكوّنتُ أسرةً صغيرة تعيش في رِحاب العائلة الكبيرة في مُخيّم جَباليا، في بِناء كبير يجمع الإخْوة والأخوات والأجْداد والأحْفاد والآباء والأبْناء، وعملتُ مُعلمة في وكالة الغوْث / الأونْروا. وهناء في غزّة الآباء والأجْداد، بقيتُ لأدْعم اللاجئين الفلسطينيّين من خلال عملي في الوكالة. في أوْنروا غزّة ثلاثة عشر ألف موظّف، وكان رقمي الوظيفيّ 10214280. هذا عدا نشاطي في مُنظمات مُجتمع دوليّ إنسانيّة وتنْموية وإغاثيّة، مثل ميرسي كيور وغيرها. لَست مُنتمية لأيّ فصيل أو حزْب، لا علاقة لي بحماس، ولا أهتمّ بالسُّلطة الوطنيّة الفلسطينيّة، كُلُّ الذي أردّده، مَثَل غيري من الفلسطينيّين، أن أعيش بسلام.

حقّقت حُلمي، وكُنت راضيةً لأني أقوم بمساعدة أبناء بلدي، لكن هذا لا يعني أننا كُنّا نعيش في فِردوس. أخبرتك أنّ الحرْب أساسيةٌ في حياتِنا، وقد عِشْتُ هُنا أربع حُروب رُبما. لكن تلك كانت حُروبًا، القصف فيها بالتّقسيط، الموْتُ والدّمار فيها يحدثان على مهْل، لم تكن إبادة، وكانتْ لدَيْنا دوْمًا حقيبة طوارئ تحوي مِزْيجًا فريدًا من الذّكريات والضّروريّات يتخمّلها فوْر أيّ قصْف ونحْرج. ثمّ إنّ الإسْرائيليّين يُكرّرون دائمًا أنهم لا يستهْدفون غير حَماس، وأنا لستُ حَماس. ثمّ إنّ الإسْرائيليّين يكْذبون دائمًا، وأنا أريد أن أصدّق أنهم لن يُستهْدفوا عامِلة في مُنظمة دوليّة إنسانيّة مُسالمة. ثمّ إنّ الإسْرائيليّين قصفوا في الحرْب الماضية دار جبرالي التي لا تُؤْوي رِجال حَماس، وأنا أعرف أنهم يعْرفون كلّ شيْء عنّا وكُل كبيرة وصَغيرة. تفْهمين عليّ؟ كاميرات، إستخْبارات، دورياتٌ. لِذا؛ حين بدأت الحرْبُ الحالية قُلتُ: لن نخْرُج، سنبْقى في بيْتنا. كذا قرّرت عائلتي الصّغيرة والكبيرة. لن يكون الأمْر مُختلفًا عن المرّات السّابقة. لكنّ تلك كانت حُروبًا كما أخبرتُك، أمّا ما يحْدث معنا الآن فنخْتاج الجُنون كيْ نتخيله، ثمّ كَي نُصدقه.

10/ 10/ 2023

في صَباح ذاك اليوْم، السّاعة العاشرة والنّصْف، قصف الإسْرائيليّون دار العائلة. لم يَشفع لنا أنّ بيْتنا الواقع في بِرْكة أبُو راشِد في مُخيّم جَباليا يُجاور مَدْرسة من مدارس الأونْروا باتت مُكْتظّة بالنّازحين. أخبرتك أنهم يعْرفون كُلّ شيْء، ولَعلّك تُدْركين الآن أنّ رَغبتي في تصْديقهم جعلَت سُقوط صاروخيْن في قَلب بنايتنا مُفاجأة كبيرة لي. لم أكُن في ذَلك الصّباح في أحسن أحْوالي. كانت درجة حرارتي مُرتفعة وأشْعر بإنْهاك شديد، والحُمّى تُمارس هوايتها في إسْلامي للهَذيانات وغياب الوعْي. لسبب ما، قلت لبرْزوجيّ، حُسام أحمد 42 سنة، أن يأخُذ الولديْن، عَلا 8 سَنوات ومحمّد 5 سَنوات، ليسلّما على جَدّهما وجدّتهما وأعْمامهما وعمّاتهما. لا! لا أظن أنّي كُنت أنتبأ بما سيحْدث، لا أظن أنّ لِلحُمى خاصّية شحْذ الحَدس وكشْف الغيْب. كُلّ ما في الأمْر أنّ هذا من الأشْياء التي أحب أن يفْعلها وَلداي، أن يظلّوا على ارْتباط مع ثقّة أفراد العائلة.

العائلة وطنٌ صغيرٌ، دُميةٌ صغيرةٌ تقع في رَحِم دُمى أكبر تنْتهي بالأمّ فلسطين. بأي شيْء غير هذا سنحقّق انْتماءَنا ونوْكّده؟ في زمن غيابهم، خمْس دقائِق مثلا؟ أكثر؟ أقلّ؟ لا أجيد الحُمى حساب الوقْت، في زمن غيابهم نزل الصّاروخان. صاروخان من صواريخ السُّقوط كما تُسمّى. في أوّل الأمْر لم أسمع شيْئا، لا تسمعين شيْئا حين تكْونين هدفًا للمَوْت. في أوّل الأمْر لم أفهم شيْئا، كُنت أطير مصْحُوبةً بالحُمّى وبكابوس يشيع لَن يُوقظني مِنْهما إلّا ارْتِطامُ عنيف بالأرْض وركامٌ هائِل نزل عليّ ودفنني تحت الرّدْم. لا تريْن ذلك، لكن تحْت ثيابي جسْمًا مُحروقًا بكامِله، وفي رَأسي شقٌّ إخْتاج من الطبيب ثلاثين قُطبة. لَحظتها لم أشْعر بشيء، هُما ثانيتان طرّتْ فيهما إسْتعاد فُمي ذاكرته وبدأ بالصّراخ. ألمٌ رهيبٌ، وسقطتْ بيْنما كأن الصّاروخان بشّطان أرْواح خمْسة وعشرين شخْصًا من عائلة زوجي، الجدّة، الأعْمام والعمّات، أوْلادهم، كلهُم رحلوا. في هذا الجُنون الذي تسمّينه حرْبًا لا يستغرق شقّ خمْسة وعشرين زوجًا أكثر من ثانيتيْن، وبمعْجزة لا أفْهمها إلى الآن نجا زوْجي، ونجا وَلداي، ونجوْتُ. هذه إرادة ربّ العالمين.

> اختفت العائلة في لمح البصر، قضى الجميع تحت الأنقاض، وانتشلت الجثث تباعاً. وأنا تحت الأنقاض سمعت صراخ ابنتي

اختفت العائلة في لمْح البصر، قضى الجميع تحْت الأنْقاض، وانْتشلتْ الجُثث تباعًا. وأنا تحْت الأنْقاض سَمعْت صُراخ إبنتي عَلا، كانت تُنادي على أبيها. لَيْس صُراخها وَحسب، سَمعْت صُراخًا يأتي من كُلّ مَكان، سمعْت صَوْت والِد زوْجي يُنادي على ابنتي باحثًا عنْها، وكانتْ الأرْض من حوْلنا تشْتعل بالنّار كأنّنا في مَوْقد حَجَريّ، علمْت لاحقًا أنّ الجَدّ تتبّع صوْت حفيدته حتّى عثر عليْها، ثمّ نبش بأظفاره ليفْتحها بعض الهواء. كانت ابنتي الصّغيرة تمُوت اخْتِناقًا! كانت تُدفن حيّة! علمت لاحقًا أنهم اجْتمعوا وحفروا بأيْديهم وأصابعهم وأظْفارهم وجلودهم حتّى انْتشلوها.

لم تكُن لديهم الآتٌ أو أدوات، فعلوا ذلك بغريزتهم التي نمتْ وصارتْ مُعْجزة، ونجحوا، وانْتشلوا عَلا من سبيْ حديد يخْترق رِجْلها.

> كل الذين أحبهم كالزهور تبخروا فجأة، رضع لا يزال أثر الحليب على شفاههم ماتوا مختنقين

في تلك الوقْت كلّه كُنت لا أزال تحْت الأنْقاض، كُنت أسْمعهم يصْرخون باحثين عن أحْياء، لم أكُن أظن أنّي حيّة، فلم أتعب نفْسي بالرّدّ عليهم. كُنت على يقين مِن أنّي مُتّ، أنّي أُغادر الطّريق إلى العالم الآخر. بل ما كان ليتغيّر شيْءٌ حتّى لو لم أبلغ ذلك اليقين، فقد شعرت بأنّي فقدت القُدرة على الكلام، بل نسيته كأنّي لم تعلّمْه يوْما. لم أصرخ من الرُّعب ولا من الألم، لم أتفوه بكلمة، وحدها يَدي امْتدّتْ من بيْن الرُّكام مثلما يُخْرج أوّل النّبات قعرها مكاني. الجد هو الذي رأى يَدي، فاشرع إليّ ويدًا يحفر حَولي ويُنْتشلني. حينها نحْن وأوْلادنا، في عائلتنا شُهداء مُنْذ زمن، أخْت زوْجي أرملة، فوْزوجها شهيد، قتل في حرْب 2008، لا جديد في هذا، لكن لم يكُن الوضْع مرّة بهذه الصُّورة، لَيْس هكذا. نحْن سُجناء في غزّة مُنْذ سنوات طويلة! هلّا أخبرت العالم أننا كُنّا نعيش في سِجْن كبير اسْمه قِطاع غزّة؟ مُنْذ عشْرين سنة أعيش في القِطاع، أعيش الموْت، موْت يجيء وموْت يذْهب، أربع حُروب رُبما، او خمْس، لا أجيد العد، لكن لم يكُن يصل الأمْر إلى حدّ الإبادة. تحملت الحياة هُنا لأنه وطني، لأنه حُلمي، ولأنّي أعيش مع عائلتي الكبيرة الحميمة. هذا وأنا أنتمي إلى أعلى الطّبقة المتوسّطة وأعاني على الرّغم من ذلك، فكيْف بالآخرين؟ الحياة صعْبة في السّجْن، ولا يُخفّف من صُعوبتها أن تكون مساحة السّجْن أكبر من المألوف. عشْتُ عدّة حُروب، نخرج من حرْب لنَدْخل في أخْرى، هذا عدا الغارات الجوية المتفرّقة التي تشنّها إسْرائيل بيْن الفيْنة والفيْنة، لكن كُلّ ما سبق يبدو لي الآن ألعابًا نارية. في كُلّ سنة يحْدث عُدْوان إسْرائيليّ، يحْدث قصْف عنيف، يحْدث قتْل دُون تمييز، لكن هذه المرّة الوضْع مُخْتلف: يُوجد قرار بالإبادة.

عانيْنا كثيرًا في سِجْننا الكبير، لا كهْرباء، لا ماء، لا أماكن يذْهب إليْها الأوْلاد، مصاعب لا تُحصى في كُلّ خُطوة نخْطوها، كُنت أبقى أحيانًا أربعة أيّام في معبر رفح لإسْتصْدار السّفر، حُرُوب لا تَنْتهي، حِرْمان من أبسط مَتْع الحياة، أقصد بالضّبْط المتع التي كانت ترفًا لنا وجزْءًا عاديًا من يوْميّات شعُوب الأرْض. لكنّنا صبرنا، رُبما كانت لدى الإنْسان قُدرة على تحمّل الجحيم حين يكون الجحيم مُتقطّعًا. صبرنا، أيّام وتمُر، زمن ويمضي، وهذه أرْضنا، هي التي أريد أن أعيش في غزّة، أحبّ غزّة، لِذا؛ كان قرارنا دوْمًا البقاء. لم نُفكّر في المغادرة قط.

الزّوج، والزّوج مُكرَرًا

مع الأيّام انْتهدتْ رِجلي من إنْتان جُروحها. فيها جُروحٌ كبيرة، انْظُري، ذهبتْ أجْزاءٌ من لحمي. عادي أخبرك أنّي صِرتُ أشْعر بأنّ جِسْمي ناقِصٌ؟ كُلّ الذي قصصْته عليْك إلى الآن حدث في العاشر من أكْتوبر، وكُل هذا والأقْتحام البرّيّ لم يبدأ بَعْد. كان قتْلهم إيّانا يَنزل علينا من السّماء. إنّ الإسْرائيليّين يسْتخْدمون أسْلحة جديدة ومخْطورة. سُمُومٌ وموْاد كيميائيّة أُلقيت علينا تسبّب أعْراضًا غريبة. لَيْس دمًا وحسْب، كُنْت أرى كُتَلاً لَحمية ودمويّة تخْرج مني. كُنت أشْعُر بشيء يتقطّع داخِل بطْني ثُمّ يخْرج، بَعْد ذَلك انْقطعتْ دوْرتيْ الشّهْريّة. فقطع. رُبما نُفذت السُّموم من خِلال جِلْدي أو إمْتصّتْها جُروحي. عانيْتُ من الالْتهابات في كُلّ جُزْء من جَسدي، وجوْزوجي لا تَلتقم. هذا حال الجسد، أمّا ما يعْتمل في نفْسي فلا أسْتطيع وصْفه لَك، لن تُسْعفُني لُغتي. أبكي طوال الوقْت، نبْكي أربعًا وعشرين سَاعة في اليوْم، كُلّ الذين أحبّهم رحلوا. أطفال أبرياء بدِيعون كالزّهور تبخّروا فجأة، رُضّع لا يزال أثر الحليب على شفاههم مَاتُوا مُخْتنقين بالمُوادّ الكيميائيّة، الجدّة اللّطيفة مِثْل نسمة ربيعية، الجدّة التي كُنْت إن سَألَني أحدهم: لِمَ لا تَتركين غزّة؟ اجيْبُه من فوري: لا أتْرك الجدّة الطّيّبة، تلك الجدّة رحلت. لي سبعة أشْهُر لا أكُف عن التّفكير في هذا، في عائلة كانت سكني وانْتمائي، في دار كانت وطني الصّغير الدّافئ، كُلّ شيْء اخْتفى في ثوان، كُلّ شيْء بات مُجرّد ذكْريات.

إنْتقلْنا شمالاً، إلى دار أهلي في الصّفتاوي، وَإنا على كرْسيّ مُتحرك. ما من شيْء سيغْير دهْشتك إن أخْبرتُك أننا نرْحنا تحْت القصْف، لكن أثار دهْشتي أنّ القصْف على شدّته لم يكُن كافيًا لإسْكات أوْجاعي. لم أكُن أتداوى بغير مُضادّات حَيويّة فمويّة، وكُنت عاجزة عن الحرَكة، وابْنتي بحاجة لأوكسجين من أثر إخْتناقها تحْت الرّدْم، وزوْجي لا يزال يُحاول دفْن موْتاه. أبي المُقعد الذي يبْكي من ضعْف في البصر شديد وأعْراض كثيرة، أمّي المسنة، أخي ذو الأطفال السّتة، أخْتي وزوْجها، وأنا مع ابنتي، لم يُهلّنا الجُنون أكثر من يوْمين. يوْمان فقط، يوْمان بعْد المجْزرة، في الثّاني عشر من أكْتوبر ألقى علينا الإسْرائيليّون مناشيرهم تلك. هو الرُّعب، هو يوْم الحشْر الذي يأتي مِثْل لصّ وأهْل البيْت نيام، هي النّصْحات التي يجْمع فيها الأهْل من يجدُونه حوْلهم من أوْلادهم ثمّ يعودون بعْد ذلك لإلْتقاط من نسُوه! أظُنّك شاهدْت أفْلامًا سينمائيّة تصف ما يحْدث عنْد كارثة طبيعية هائِلة تُنْذر بنهاية العالم، سيعيدك هذا عَلى تخيُّل حالنا في تلك اللّحْظة، حمّل زوْج أخْتي ابنتي عَلا، وألقى بي مع كُرْسيّ المتحرّك في سيّارته.

المنْزل القليل الذي بقي فيها، ثمّ قرار زوْج أخْتي بالخُروج فوْرًا مهما حدث قبْل أن يُغْلقوا شارع صَلاح الدّين، كانا سبب نجاتِنا. تركنا أهلي، وكانتْ كُلّ حركة من حرَكات السّيّارة، بل كُل سكْتة من سكناتها، تُولد في جسدي الامًا لا تُوصف. صُمّرة على الوصْف؟ تخيلي أنّ جسدك كلّه سكاكين، وفي كُلّ لحظة تنغرز السّكاكين أكثر في لحمك واعْصابك وعظامك. الوُجْهة: جنُوب وادي غزّة، هذه أوامر الإسْرائيليّين. بطردوننا، يأتُون من الهواء ليجهزوا على الجرْحى ومن نجّا من المجازر التي إرْتكبوها من قبْل، ثمّ يلْحقون بنا إلى مَكان نزوحنا الجديد. قرار واع بالإبادة، كأنهم تعمّدوا ألّا يبْقوا منّا أحدًا، وصُلْنا أخيرًا إلى النّصيرات، وبعْد عشر دقائق من وُصولنا أغْلقوا شارع صَلاح الدّين. من بقي في الجهة الأخرى، هُناك شمال الوادي، صار الآن حبيسًا.

في مُخيّم النّصيرات دار مهْجورة كان يسْكنها سَيدي، أي جدّي والِد أبي. بيْت خرب، لَيْس فيه حمّام ولا ماء، جُروحي مفْتوحة، علا تبِعتي من الوجع، ومحمّد يقُول: هذا بيْت شياطين، أنا مِش مبْسوط. عُمرُه خمْس سنوات وصار قادرًا على القوْل وهُو يُحدّق بعيْنيْن جامدتيْن: أنا مِش مبْسوط. إتصلت برزْوجيّ ليأتي إلينا، قال لي إنّه لم يخْرج حيّة أهلُه بَعْد. سيتطلّب الأمْر منه - كما تبيّن - سبعة أيّام حتّى استطاع إخْراج الجُثث ودفنها، ما عدا أخته التي تمزّقت أشْلاء. ولأنّنا أردْنا رُؤيته بشدّة، ولأنّه يُريد أن يُطمْئن علينا، كان يأتي ثمّ يعُود إلى مَكان المجْزرة، لن يهدّأ له بال ما لم يدفن أفراد عائلته. بُعْدها اقترح علينا أن ننْتقل إلى بيْت عمّته. لن يكُون الحال أفْضل، لكن ما من خيار. هُناك سنتْخشّر في بيْت واحد مع العشرات، ومجدّدًا لن يكُون لدَيْنا ماء، كيْف تستطيعين الاسْتحْمام وقضاء حاجتِك دُون ماء؟ كيْف ستعْتنين بجراحك؟ ولم اكن وحدي، الجميع في مثْل حالي، ولكُل واحِد مصائبه ومشْكلاته. في هذا الوقْت، كانت العمليّة البرّيّة بدأت في جَباليا. اتذكرين أخْت زوْجي التي حدّثتُك عنْها؟ أرملة الشهيد، أفنت عُمرَها في تربية ابنها، وأصْلته إلى سنّ الرّابعة عشْرة، ثمّ قتلت مع بدْء العمليّة البرّيّة. وبقي ابنها مع جدّه في جَباليا. المهم، ذهبْنا هذه المرّة إلى بيْت خالتي في الزّوايدة، سمّيْتُ أهلي إليْها، وفي غرْفة واحدة اقفلْنا معًا، أربعة عشر شخْصًا من بينهم أبي المقْعد. لا فرْش، لا أغْطية، لا كهْرباء، لا اتّصالات، ولا إنْترنت، أنام على الأرْض وأوْجاعي معًا، وزوْجي يقْطع كُلّ يوْم مشْيا ساعة في الذّهاب وساعة في الإياب ليأتي بطعام لأطْفاله، عطشْتُ حتّى الجفاف، وكثيرون، من بينهم ابْني مُحمّد، أصيبوا بالتهاب الكبد الوبائيّ. الماء مُلوّثٌ، المكان مُلوّثٌ، الهواء مُلوّثٌ، ومن حَولي ترقّد هياكل عظمية من بيْنهم ابْني وابْنَتي. كيْف حدث وأنْ أصْبحوا خارجين من مجاعة لم نكُن نُشاهدها إلّا في أفْريقيا؟ ساعدنا أهْل رفح كثيرًا، لكن أيّ شيْء يوْضعه لن يُزيل مُعاناتنا أو يُخفّفها؟ الألم شديدٌ، المأساة كبيرة، أشْعر أنّ حديثي عنها، أنّ تكْرار مُفْردات بعيْنها، سيبْتذل المأساة كُلها، لكن ما العمل؟ من أيْن آتي بلغة جديدة؟ اتعْلمين ما أكثر ما كان يُخْجلني؟ الصّراخ، صُراخي، أن يسْمع نِساء ورجال لا أعرفهم صُراخي، هذا اذاني إلى أبعد حدّ، ولم أستطع التّحكّم بالأمْر، الامي لا تهدأ، وجرْوحي لا تندمل، شعرت بأنّني عارية وسط أصْواتي التي تخْرج مني رغْما عني، جعلتْني عارية وسط خمْسين شخْصًا، أو ثمانين. عارٌ، عارٌ كبير ثقافته رائحتي.

صمتُّ من جديد، وراحتْ تنظر نحو نقطة بعيدة في الأعلى، وعلى الرغم من الأسْئلة التي كانتْ تغْلي بداخلي، شعرْتُ أنّ الصمت الذي تركتْهُ كلماتُها أقوى من أنْ يُكسر، لقد كان صمتاً شخصياً جداً، إعلاناً للكرامة بشكل ما. طاف الدمْع خلف أهدابها، هضابُ من الدموع غرغرتْ وتدافعتْ وتراكمتْ ولكنّها عجزتْ عن النّزول، انت بعدك معي؟ سالتني وهي تبتسم!

تلك الرّائحة

اليوْم هُو الثّالث من ديسمْبر. نظر الطبيب في مشْفى شُهداء الأقْصى إلى ساقي الحمْراء المتورّمة وقال مُباشرة: تحْتاجين عمليّة. ثمّ أردف: لا يُمْكنني فعل ذَلك، ساكْتفي بتعْقيم جُروحك. - أيمْكنُني الحُصول على مُضادّات حَيويّة؟ - لَيْس لَدَيْنا. المُشْفى مُمْتلئ عن آخره، مُكْتظّ بالنّازحين والجرْحى والإنْتانات والزّوائح. نعْمة، أخْت لِزوْجي، قتلت في قصْف مع أوْلادها السّبْعة وتركتْ رَضيعة. كَمْ صار عدد قتْلى عائلتنا؟ ثلاثة وثلاثون؟ الماء المَوْت فعل فعْله بي، أصبْتُ بالتّسمُّم، ولا أكُف عن القيْاء، والقَصْف يطاول كُلّ شيْء: الشّرْطة المدنيّة، المشافي، المتْسوّصفات، الصليب الأحْمر واطبّاء بلا حُدُود، لم تعُد لدَيْنا إغاثاتٌ إغاثيّة أو خدْمات طبّية، لا يُوجد الآن أيّ شكْل من أشْكال العناية بالجُرْحى والمَرْضى، بل لا يُوجد دَواء يُوقف قيئي. قال أحدهم لزوْجي، أظُنّه أحد الأطبّاء لَست مُتأكدة: أرأيت الماء الذي في المعلّبات؟ عُلبة الفُول مثلاً؟ إعْصروا عليْه لَيْمونة ولْتشربه. هذا كانت وصفته! قال زوْجي إنّه مُسْتعدّ لِدفع ثمن الدّواء، أكّد الطبيب أنّ الدّواء غَيْر مُتوفر. لا تعْدُوا نفْسكم.

حدث ما سبق قبْل ذهابنا إلى رفح، أعتذر إليك من إعْقالي ترْتيب الأحْداث، أنا مُشوّشة، وكُل شيْء حدث في وقْت قصير، كانَ كُل شيْء حدث في الوقْت نفْسه. أحاول أن أركّز، أتحدث إليك لأني أريد أن يسمع العالم حكايتنا، وبقيتُ تفاصيل لا تنْتهي لم أذْكرُها، لا أتخيل أنّ كتابتها مُمْكنة. أظلّ أبكي طوال الوقْت، خسرنا كُل شيْء، نرْحنا خمْس مرّات في أربعة أشْهُر، أنظر إلى ابْنتي المريضة، إلى حُروفي، إلى جُروحي المُنْتنة، إلى سَاقي المُلْتهبة، إلَيْنا ونحْن نتحدّس مِثْل أكوام لَحْم، وأظلّ أبكي وأدْعو الله أن يرْحمني ولا يتْركني أعيش لِليوْم التّالي، وأفكّر في بَلاغة إبْني: أنا مِش مبْسوط. لا يزال في الخامسة، أخْبرتك، لكن شعْره ابْيضّ. طفل برأس شاب! كانت نجاتُه مُعْجزة، الحمْد لله، طار مِن قُوّة الإنْفجار مِثْل واحِد من أبْطاله الخارقيْن الذين يُشاهدهم في قَنَاة الكرْتون، ثمّ حطّ على سطْح بناية مُجاورة. وجْدُوه واقفًا بثياب يُرثى: الدُّنْيا حمرا، الدُّنْيا حمرا! إلى اليوْم يقُول: الدُّنْيا حمرا.

في رفح، في مبْنى فيه أكثر من ثلاثمئة شخْص، في شقّة فيها خمْسُون أو ثمانون، بقيتْ عشرة أيّام. كان الغلاء فظيعًا، لَيْس معنا مالٌ أو بطاقات بنكية، والكلّ جائِعٌ. اجتمع في رفح ثلاثة أرْباع أهْل غزّة. تمشيْن في الشّوارع فلا ترين غير الجياع، والمرْضى، ومبْتوري الأطْراف، وأنْصاف أجْساد تجول في كراسيّها المتحرّكة على غَيْر هُدى. كانبُوش، مرْض خُرافيّ، اختناق عظيم بروائحنا، روائح إنْتانات جُروحنا التي انْضافتْ إلَيْها روائح الجُثث المتحلّلة تحْت الأنْقاض. رائحة المَوْت والتّفسّخ في كُل مَكان. لا أظُن أنّ هذا الأمْر حدث في أيّ مَكان في الكُرة الأرْضيّة: أن يعيش أنْصاف المَوْتى وأنْصاف الأحْياء معًا. صار؟ أن نرى أجْسادنا باغيْننا وهي تتحلّل في الزّمن الحقيقيّ، صار؟ هذا ليْس مجازًا، حين أحدّثك عن تعفّن أجْسادنا لا أقصد المبالغة ولا أستعين بالبلاغة، كُنّا نرى حقًا الدّيدان وهي تخْرج من جُروحنا. تلك الرّائحة! الجُثث، الإنْتانات، النّفايات المتراكمة المخْتلطة بالْلحم البشريّ، مزيج قاتِل. من مخْزرة العائلة نجا طفْلان، رَضيعة عُمْرها سنة ونصْف، ووَلدٌ عُمْره أربعة عشر عامًا، يتيمان تزْكتهما أخْتا زوْجي، صارَا الآن ولديْن لَنا.

لا أعْرف أيّهما أشدّ، الألمُ النّفْسيّ أم الجَسَدي، لكنّي لاحظْتُ أمْرًا غريبًا: في كثير من الأحْيان طغى الألمُ الصليبُ الأحْمر واطبّاء بلا حُدُود، لم تعُد لدَيْنا إغاثاتٌ إغاثيّة أو خدْمات طبّية، لا يُوجد الآن أيّ شكْل من أشْكال العناية بالْجَرْحى والمَرْضى، بل لا يُوجد دَواء يُوقف قيئي. قال أحدهم لزوْجي، أظُنّه أحد الأطبّاء لَست مُتأكدة: أرأيت الماء الذي في المعلّبات؟ عُلبة الفُول مثلاً؟ إعْصروا عليْه لَيْمونة ولْتشربه. هذا كانت وصفته! قال زوْجي إنّه مُسْتعدّ لِدفع ثمن الدّواء، أكّد الطبيب أنّ الدّواء غَيْر مُتوفر. لا تعْدُوا نفْسكم.

حدث ما سبق قبْل ذهابنا إلى رفح، أعتذر إليك من إعْقالي ترْتيب الأحْداث، أنا مُشوّشة، وكُل شيْء حدث في وقْت قصير، كانَ كُل شيْء حدث في الوقْت نفْسه. أحاول أن أركّز، أتحدث إليك لأني أريد أن يسمع العالم حكايتنا، وبقيتُ تفاصيل لا تنْتهي لم أذْكرُها، لا أتخيل أنّ كتابتها مُمْكنة. أظلّ أبكي طوال الوقْت، خسرنا كُل شيْء، نرْحنا خمْس مرّات في أربعة أشْهُر، أنظر إلى ابْنتي المريضة، إلى حُروفي، إلى جُروحي المُنْتنة، إلى سَاقي المُلْتهبة، إلَيْنا ونحْن نتحدّس مِثْل أكوام لَحْم، وأظلّ أبكي وأدْعو الله أن يرْحمني ولا يتْركني أعيش لِليوْم التّالي، وأفكّر في بَلاغة إبْني: أنا مِش مبْسوط. لا يزال في الخامسة، أخْبرتك، لكن شعْره ابْيضّ. طفل برأس شاب! كانت نجاتُه مُعْجزة، الحمْد لله، طار مِن قُوّة الإنْفجار مِثْل واحِد من أبْطاله الخارقيْن الذين يُشاهدهم في قَنَاة الكرْتون، ثمّ حطّ على سطْح بناية مُجاورة. وجْدُوه واقفًا بثياب يُرثى: الدُّنْيا حمرا، الدُّنْيا حمرا! إلى اليوْم يقُول: الدُّنْيا حمرا.

في رفح، في مبْنى فيه أكثر من ثلاثمئة شخْص، في شقّة فيها خمْسُون أو ثمانون، بقيتْ عشرة أيّام. كان الغلاء فظيعًا، لَيْس معنا مالٌ أو بطاقات بنكية، والكلّ جائِعٌ. اجتمع في رفح ثلاثة أرْباع أهْل غزّة. تمشيْن في الشّوارع فلا ترين غير الجياع، والمرْضى، ومبْتوري الأطْراف، وأنْصاف أجْساد تجول في كراسيّها المتحرّكة على غَيْر هُدى. كانبُوش، مرْض خُرافيّ، اختناق عظيم بروائحنا، روائح إنْتانات جُروحنا التي انْضافتْ إلَيْها روائح الجُثث المتحلّلة تحْت الأنْقاض. رائحة المَوْت والتّفسّخ في كُل مَكان. لا أظُن أنّ هذا الأمْر حدث في أيّ مَكان في الكُرة الأرْضيّة: أن يعيش أنْصاف المَوْتى وأنْصاف الأحْياء معًا. صار؟ أن نرى أجْسادنا باغيْننا وهي تتحلّل في الزّمن الحقيقيّ، صار؟ هذا ليْس مجازًا، حين أحدّثك عن تعفّن أجْسادنا لا أقصد المبالغة ولا أستعين بالبلاغة، كُنّا نرى حقًا الدّيدان وهي تخْرج من جُروحنا. تلك الرّائحة! الجُثث، الإنْتانات، النّفايات المتراكمة المخْتلطة بالْلحم البشريّ، مزيج قاتِل. من مخْزرة العائلة نجا طفْلان، رَضيعة عُمْرها سنة ونصْف، ووَلدٌ عُمْره أربعة عشر عامًا، يتيمان تزْكتهما أخْتا زوْجي، صارَا الآن ولديْن لَنا.

لا أعْرف أيّهما أشدّ، الألمُ النّفْسيّ أم الجَسَدي، لكنّي لاحظْتُ أمْرًا غريبًا: في كثير من الأحْيان طغى الألمُ الصليبُ الأحْمر واطبّاء بلا حُدُود، لم تعُد لدَيْنا إغاثاتٌ إغاثيّة أو خدْمات طبّية، لا يُوجد الآن أيّ شكْل من أشْكال العناية بالْجَرْحى والمَرْضى، بل لا يُوجد دَواء يُوقف قيئي. قال أحدهم لزوْجي، أظُنّه أحد الأطبّاء لَست مُتأكدة: أرأيت الماء الذي في المعلّبات؟ عُلبة الفُول مثلاً؟ إعْصروا عليْه لَيْمونة ولْتشربه. هذا كانت وصفته! قال زوْجي إنّه مُسْتعدّ لِدفع ثمن الدّواء، أكّد الطبيب أنّ الدّواء غَيْر مُتوفر. لا تعْدُوا نفْسكم.

مسنة فلسطينية داخل مستشفى شهداء الأقصى، 25 أغسطس 2024 (أشرف أبو عمرة/ الأناضول)

اكتظت رفح بالنازحين قبل تهجيرهم مجدداً، 28 مايو 2024 (إياد البابا/ فرانس برس)

> منذ عشرين سنة أعيش في القطاع، أعيش الموت، موت يجيء وموت يذهب، أربع حروب ربما، أو خمس، لا أجيد العد

دمار هائل في مخيم جباليا، 14 سبتمبر 2014 (محمود عيسى/ Getty)